أعـز الأصـدقاء

قد تنكر مقولتي عن الصداقة والوفاء في زمن سادت فيه غربة الأشياء ناهيك عن غربة الأفراد. أجل صديقي تعرفت عليه منذ أيّامي الأولى في الدراسة وعبر كافة أطوار التمدرس.

تخرجت من الجامعة ولم يبتعد عنّي رغم أنّني أتهرب منه في بعض الأوقات أو الأيام متحججة بالمناسبات وما أكثرها من مناسبات دينية وأخرى وطنية وبين هذا وذاك الولائم والعزائم والطقوس الدنيوية من مجاملات زياراتية وغيرها. المهم ألف حجة وحجة لأجد نفسي بعيدة عنه، وهو بكل أدب يحترم رغباتي.

وقعت في ضائقة مالية فرحت أبيعه بثمن بخس دنانير معدودات وأنا فرحة بها كأنّي بطلة في الانتقام وتخلصت منه بسهولة. لأنّني متأكدة بأنّه لن يتخلى عنّي وسوف يعود إلي عودة سيدنا يوسف إلى أبيه يعقوب «عليهما السلام».

خاب ظني، كنت أعتقد بأنّه سيشتاق إلي ويبحث عنّي، لكن هيهات هيهات في حقيقة الأمر أنا من كانت مضطرة للبحث عنه. حاولت أن أسلي نفسي مستعينة بما أغرتني به آخر التكنولوجيا الحديثة، فاستعنت بالدنانير القليلة التي أحصل عليها من جراء التضحية به باعتباري الوريثة الشرعية الوحيدة له. فاشتريت علبة تكنولوجيا يطلق عليها بالجيل الرابع ورحت أسبح في عالم التكنولوجيا متناسية

وجوده.

لكنّني اشتقت إلى صديقي، وتذكرت أيّام الصبا، تذكرت أيام المراهقة وأيّام الثانوية كيف نجحت بوجوده إلى جنبي. استرجعت أحلك الظروف لأجده دائما إلى جانبي ليخرجني من الأزمات فعندما قست عليّ الأيّام احتضنني بصدر رحب.

تذكرت كيف تخليت عنه أمام أول زبون ورغم ذلك قابلني بابتسامة فيها كثير من التحدي وبكلام المتيقن من النصر قال «بيعيني كيفما شئت وقتما شئت وبأي ثمن شئت لكنّك كوني متأكدة ستجدينني وقتما شئت « تذكرت تحديه الأخير علمت بأنّني لا أقدر على التضحية به ولا على الابتعاد عنه.

اشتاقت أناملي إلى مداعبة صفحاته تحنّ كفي إلى حمله، اشتاقت عيناي إلى الغرق في كلماته بل وحتى أفكاري عطشى لغذائه غذاء الروح.

والآن هل عندكم شك في مقولتي، هل عندكم تردد في وفاء صديقي، هو سفر بلا قيود ولا حدود. ذلك هو كتابي الذي أشعر بتحسن المزاج لمجرد لمسه، كما قالت «جين سميلي» «العديد من الناس ومن بينهم أنت تشعر بتحسن لمجرد رؤية كتاب».